

# هَوَ ك تَوْعِيَّة لِرَبَاط بَرَانَا

## بِقِمْ عِبْدِ الْمَحْمُودِ الْعُلُوْعِي

الكلمة المخطوطة ، وهم أول من أدرك حاجة المخطوط العربي الى ما يشبه عملية التعدين التي صاغها التطور الصناعي فنا خاصا باستخلاص المسان وسبكها .. ولذلك وجدناهم يعذبون المخطوط بقسوة هادفة خلال التحقيق سواء باستقراء الكلمة أم بالتعليق النقدي عليها أم بدحض الشبهات التي تحوم حولها .

وفي الربع الاول من القرن العشرين استشم المفكرون من سدنة التراث العربي ضرورة انفرادهم بعملية التحقيق العلمي وتقييم التراث المخطوط من دسائس ذوي الاهواء ، ومن الانتحال الجرم .. ليرسخوا ، بعد ذلك ، على المخطوط العربي الذي زایل جيله ألف سنة أو أكثر أو أقل ، ثم رمته الايام بين انقرباء .. لا يمكن أن يرى النور في سلامة وعافية إلا اذا اعتضده الوارثون بالعلم والامانة والحنان .. فبغير هذا لن يستطيع أن يستوعب جدارة الحياة في مواجهة الحضارة الراهنة .

وغب الحرب العالمية الثانية انتهت حماقة التطرف ببعض الأدعاة الى أن التراث العربي عبء ثقيل يعيق التوثيق ويناقم الانطلاق ، وان التشبث به تكوص عقيم وهجرة الى فراغ .. وكان لهذه الاحموقة آثار وبيبة زحفت بهؤلاء الدعاة الى تأكيد الاستغناء عن الامجاد التراثية . وتلك دعوة شاذة أثار الاستهجان .. ولكن أصحابها بثوها بين الناس ضرورة منصوطة في مواجهة الذين يدرسون ميراث الماضي تحديدا للملاح الاصاله العربية .

وفي منتصف القرن الراهن اندلعت في الوجود العربي ، خلال صراعه الرهيب مع القوى الامبريالية ، ارهاصات دلت - في وقتها - على كياسة ثقافية ، فقد ظهرت اكثر من علامة رامية تكفر بالعدول عن التراث ، وتلمنه ضريا من جنون ، وتحمد التركة الحضارية لازمة كفاحية ضد الامبريالية العالمية ، وتستقر على ان من اوجب الفرائض في مناخرة هذه الضراوة توثيق الارتباط بالخائر العربية .

وقد تواضح هذا الاتجاه في مؤتمر الادباء العرب الاول الذي شهده ايلول سنة ١٩٥٤ في لبنان . فهذا المؤتمر وان تم انعقاده في غمرة الكفاح الوطني والقومي لتخليص الشعب العربي من السيطرة الاستعمارية ، لم ينس التراث .. فقد « اوصى جامعة الدول العربية بالمزيد من العناية بنشر المخطوطات العربية ، وتعميم مصورات المخطوطات على دور الكتب العامة في العالم العربي ، وتمكين الباحثين من الحصول على هذه المصورات . وأوصى الكتاب العرب والمؤسسات الثقافية بالعمل على بعث التراث العربي القديم وبحثه في ضوء المفاهيم الحديثة التماسا لربط الماضي بالحاضر ، والافادة منه في سبيل النهضة العربية » .

وحين انعقد المؤتمر الثاني في بلودان بالجمهورية السورية خلال شهر ايلول من سنة ١٩٥٦ .. استقام خشنا للوجدان العربي في مواجهة العدوان الاستعماري الذي كانت ندره تلوح عن كسب ، ولكنه - رغم ذلك - أكد بين وصاياه « مهمة الاديب العربي القومية في حماية التراث العربي ، وفي نصره القيم الانسانية التي يتميز بها تراثه ، كما أكد ضرورة الاهتمام بالتراث العربي القديم » وكان من بين مقرراته « المعاونة على نشر التراث القديم نشرنا علميا وشعبيا يسمح بتمام الاستفادة منه والتزود من اثره في اغناء حياتنا الادبية ، وكذلك المعاونة على بعث التراث الفني العربي ، وتبسيطة ، وابرار جوانب الاصاله فيه

وجدتني اسقط ، في معرض الاصطفاء بين الابحاث التي استقامت نهجا لادباء هذه الدورة ، على « توثيق الارتباط بالتراث العربي » .. لانه موضوع طالما توثبت الاقلام في مزالقه دونما مبالاة .. لتؤكد مفهوم التراث بما يرفع التوهم ، ولتلهب الرغبات والدوافع في سبيل عرفانه واحبائه ورعايته .. ولكنها رغم هذه الريحية والنجدة والمساعفة - لم تجاوز مدى الزعم ، ولم تسلم من الاعتباط والشط ، فكان تخرجها في السلوك والرأي سببا الى اقتحامي حكاية التراث .

انني أفهم التراث Heritage انماطاً حضارية تطورت بين تحوير وتعديل لتتحد من الاصول جيلا عن جيل ، كما أفهمه شخصية مستمرة غادرت ماضيها الى حاضر وقد تفادى حاضرها الى غد .. وهذا المفهوم يصدق على التراث العربي دون تصف : فقد كانت تركة العرب الفكرية مترامية الابعاد ، وكانت تتجدد بخصوصية بعد ان احتازت المجد العربي كله ، وعانقت الثقافات الوافدة

وأفهم أن وراء التراث العربي عقلية ناقبة تغلغلت حتى الاغوار ، وتشامت على القمم ... عقلية استطاعت أن تلد ما يسميه فاليري بالحال الشعرية Etat Poétique وأن تكشف عن طبيعة الواقع الجمالي ، وتتمادى في التخاشع الصوفي ، وتعابش الفن والعلم والاخلاق ، وتجادل بالنبي هي أحسن وتفني للانسان .

واستغرق التراث العربي من المؤلفات ما لم يستغرقه تراث آخر ، فقد حفلت به خزائن الكتب في بغداد ودمشق والقاهرة وحلب وأيران ومدن الاندلس وما وراء النهر والشمال الافريقي وبلاد الهند .. ولكن هذا التراث أصبح ، مع الايام ، هدفا للخطوب والنوازل والكوارث ، ونهباً موزعاً بين العطب والضياع .. ولم يبق لابنائنا منه الا مائة عزيزة ، قليلا ذليل في مكتبات الشرق ، وكثيرها مصون مرفق في مكتبات الغرب

وعلى هذه الثمالة عكف العلماء عربا ومسلمين ومستعربين - منذ القرن السادس عشر في ايطاليا وهولندا وانكلترا والكنديمارك ، وبعثت في ألمانيا وفرنسا وروسيا والنمسا واسبانيا والسويد ، ومنذ القرن الثامن عشر في مصر والعراق وسوريا ولبنان وتركيا وإيران والهند ، ومنذ القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة الاميركية - ينشرون ما راق لهم في طبقات ليثوغرافية باديء بدء . وفي طبقات حديثة اعتمدت التنفيد الحرفي أحيانا وذرائع الأوفست وتضبير الالواح المصورة أحيانا أخرى ..

واولئك العلماء جميعا نابروا - من حيث لم يحتسبوا - في عملية الاحياء Animation التي استهدفت بث الحياة في هوامد المخطوطات تصحيحا وتقويما وتصويبا وتحقيقا .

والجدير بالتنويه ، في هذا الصدد ، أن لفائمين بهذا الاحياء من غير المستعربين كانوا يعالجون المخطوط العربي بما يورث البرء والعافية تمهيدا لنشره ، وهم بذلك لم يجهدوا انفسهم ، عند استطلاع النص ، بأكثر من ازالة الخطا واستبعاد الفلظ ، وكان أحدهم حين يورطم بالفضارب والتصادم والتنازع في النصصوص المتصدعة او المتداخلة او المتناقضة أو المتناكرة .. يشارك سواء في الابعاء استسهالا للصعب .

اما المستعربون فقد اعتمدوا المنهج العلمي اداة في استنطاق

تمكيناً للنهضة الفنية المعاصرة وتثبيتاً لجذورها في ماضيها القومي .

واحتشد الأدباء العرب في مؤتمرهم الثالث الذي عقدته القاهرة خلال كانون الأول من سنة ١٩٥٧ .. وعهدت نضج شعار القومية العربية مع احتدام معارك التحرر الوطني ، وبات الاستعمار يهدد استقلال سوريا .. ورغم ذلك أوصى المؤتمر بالحرص « على أن تكون عناية الأدب بماضيه وحاضره سبيلا الى المستقبل الأفضل » كما أوصى بوجود « العناية بالتراث الشعري والاستفادة منه ، والعمل على نشر ما لم ينشر من هذا التراث ، وإقامة مهرجانات أدبية في البلاد المختلفة للأدباء الذين اغتوا التراث العربي ، واغتنام هذه الفرص لتأصيل الروح الأدبية والأهداف القومية » .

ثم تداعى الأدباء الى مؤتمرهم الرابع الذي احتضنه الكويت مع بعض أيام كانون الأول من سنة ١٩٥٨ .. وكان هذا المؤتمر يعبر عن تهاويل الازمة الشاملة التي اجتاحت الوطن العربي حينذاك ، فمزقت قواه الثورية والتقدمية ، وشغلتهما بالخلافات الداخلية عن الاستعمار والصهيونية والرجعية .. ولكنه رغم هذا التعبير الداعم عاجل التراث العربي بما جهلته المؤتمرات الثلاثة السابقة ، وافلح في الوزن والتقييم ، فهو بعد ان اعتبر التراث عنصرا أساسيا في كيان العرب الاجتماعي جعله مقوما جوهريا من مقومات وجودهم النفسي .

وسجل شباط ١٩٦٥ انعقاد المؤتمر الخامس في بغداد .. والوطن العربي يوزع نضاله المبرير بين جهاد الخلاص من الاستعمار وبين كفاح التحرر من الاستغلال .. وكان للتراث العربي من هذا المؤتمر الدعوة الى « تخليصه من الشوائب الدخيلة ، وتقديمه الى الناشئة وجمهوره المتعلمين والمثقفين ليثير فيهم الاعتزاز بامتهم وتراثها الحضاري ، والمثابرة على تدعيم حاضرمهم بماضيهم من أجل مستقبلهم » .

أما المؤتمر السادس الذي انعقد في القاهرة سنة ١٩٦٨ ، فلم أقع على وصاياه .. ولذلك أجهل ما قيل فيه حول التراث . ومع ذلك استطاع الذهاب الى ان جميع المؤتمرات السابقة تعاهدت على توثيق الارتباط بالتراث العربي .. ولكنها لم تشخص هذا التوثيق ولم تقس أبعاده ، وقد حملني هذا التساهل على القيام بترسيم ما لذلك التوثيق من أبعاد .. ليكون منطلقا الى ما يصح سياسة هادفة في الموقف العربي الثابت من قضية التراث .

وهذا الترسيم لن يتحقق الا اذا عالجنا مفالِق التراث مفهوميا ومطرحا ، وابتدئنا نستطيع ان نقدر طاقة الأديب على توثيق الارتباط بالتراث تقديرا واقعا بريئا من أية وقدة عاطفية .

لقد قلت ، في مطلع البحث ، ان التراث العربي - كأي تراث آخر - انما هو انماط حضارية انحدرت - بعد تحوير وتعديل - من الاصول جيلا عن جيل .. واضيف الان الى ذلك ان هذه الانماط قد استفرقت الاثر عربيا واسلاميا في الادب والعلم والفن والحياة . فاذا ادركنا ان التراث ، في مفهومه الارحبي ، يحتضن المنارة والحكاية والطفل والحرب والقصيدة والنقود والبلاغة والطب والهندسة والكيمياء والمنطق والفلك والنحو والزراعة واللغة والتاريخ وعلم البحار والتصوير والجغرافيا والنحت والرسم المكتوبة والفلسفة وشواهد القبور والعمارة والصيدلة والموسيقى والتفسير والمفانيد والبيطرة وعلم الكلام والانصاب والفقه .. وجميع الانوار المعنوية المادية الاخرى ، فان هذا الإدراك سيعصف دوننا شك بالخرافة التي شربناها خدمة كبيرة حين اعتقدنا ان الأديب العربي دون الالهة وفوق أهل الخطوة ، وأنه وحده يستطيع ان يخرق الارض طولا ، ويرجم كوكبا بكوكب ، ويجني من النخلة رمانا ، وأنه دون سواه القادر على توثيق الارتباط بالتراث العربي .

ان المؤتمر الراهن للأدباء العرب حين طرح هذا التوثيق هدفا للبحث .. انما طرحه مؤمنا بان التراث العربي اما أدب واما تاريخ أغمص عليهما مخطوط قديم .. وقد فاتته انه موروث حياتي متكامل لا يملك الأديب العربي أمامه - وهو الضعيف عتادا وكفاية - الا التهيب والخوف .

وعندي ان هذا الأديب معذور بازاء النقد الصارم العادل الذي

سيكشفه عاجزا عن توثيق أي ارتباط بأي حقل من حقول التراث العربي .. لانه بملكاته المحدودة ، أمام التراث ، لا يستطيع الانقراض بقوى متكافئة على الكلمة والرمز والمعادلة والشكل والمصطلح .

وهذا الواقع يبيح لي ان استهجن دعوة الأديب وحده ، في مؤتمر هادف كهذا المؤتمر ، الى ان يكون بطل البرزخ الذي يحجز أمجاد الاصول عن حضارة الفروع ، وان يكلف بتوثيق الارتباط بينهما . ويبيح لي أيضا ان العن هذا الاحتكار الذي ادخل في روع الأديب انه يستطيع بالمهاجسة الشعرية والكلمة المجنحة ان يفتح الف قلعة حصينة من قلاع التراث العربي .

لا .. يا هؤلاء ، اني اعتقد أن تراث العرب العلمي بما حوى من رياضة وطب وهندسة وفلك ، وتراثهم الفني سمعيا وتشكيليا .. لا يستطيع اي اديب - مهما أوتي من عبقريات - ان يوثق الارتباط بينهما .. لان الحرف وحده لا يكفي في هذا التوثيق ، ولان اسطورة ( افتسح يا سمس ) قد انطقت وفقدت عنفوانها عبر الامم والعذاب !!

ان توثيق الارتباط بتراثنا العربي لا يمكن ان يناط بامراء البيان وحدهم اذا كنا حقا نريد ان ندم تصاعدنا الحضاري ، وانما يجب أن يناط فوق ذلك بالتكنولوجيين وعلماء الانار والفنانين والمهندسين والاطباء وغيرهم .. وبذلك يتاح للمؤتمر تقييم التركة العربية على أفضل وجه تمهيدا لتوثيق الارتباط بها .

ومن هذا المنطلق .. أرفع عقيرتي بضرورة توجيه الدعوة الى ذوي الخبرة والاختصاص من العلماء والفنانين ليتعاونوا ، في مؤتمرات الأدباء ، وفي الصعيد التراثي ، مع أهل القلم ، على تنسيق الخطط ورسم المناهج .

واذا كان هناك من يستوعر هذا الطريق ، فاني اقترح مخلصا أن يقطع التراث العربي صلته بمؤتمرات الأدباء ليستقل بمؤتمر خاص تنتظم دوراته جميع العواصم العربية في فترات زمنية ثابتة ، وتحفل جلساته بقيادة الفكر العربي في مضامير العلم والفن والادب والفلسفة ، وتنفرد توصياته بصرامة العقل والمنطق وسلامة الرؤية . وهذه الدعوة اذا كانت نشازا في مؤتمر مجموع على سلاله من الناس اختصت بفن الكلمة .. فدفعنا للاعابيث ارجو ان يصاغ للادب مفهوم جديد يمكن الأديب من الانفتاح ونزع الاقفال في مواجهة التراث .

لقد استوطن الادب - في مفهومه الجاهلي عند العرب - السنة والسيرة والطريقة ، كما استوطن - عند أبي تمام - تهذيب الاخلاق . وفي هذا الضوء أصبح أديبا من « يروي من الشعر والنثر ما يرتفع بالروح ويسمو بالخلق » .. وعلى هذا المفهوم رسخت الاستاذة نازك الملائكة .

وعقيدتي أن أديبا كهذا الأديب حبس مهارته الاخلاقية على رؤية الشعر والنثر لا يمكن ان يستقيم في دنيانا الا كواعظ جامع الخلفاء أيام المستضيء بالله .. لانه أعجز من ان ينهض بالمهمة الخطيرة التي تسيطر على توثيق الارتباط بتراثنا القومي .

والمعروف ان الناقد الانكليزي فيليب سدني قد أفاض في الجري وراء التصديق على مفهوم الادب ادعانا لموقف اخلاقي ثابت .. ولربما كان له أثر بالغ في سلوك الأدباء الذين تعودت انوفهم استشمام الاخلاق في الاثر الادبي .. وهؤلاء جميعا ومعهم نازك الملائكة استنبتوا في مشانهم الخاصة ادبيهم الذي يجب أن يتحلى بالمواضع الرفيعة!! ان هذا الأديب - النموذج ، وهو وليد الانتخاب الصناعي في مشتل تجريبي ، لن يستطيع بأية حال أن يوازن بين رصيد ورصيد في تراثنا العربي .

وبمعزل عن الاخلاق ، بعيدا عن الأديب الواعظ .. وجسدت المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير يذعن لمذهب اخر في التصديق على مفهوم الادب ، فهو بعد ان استبعد عن دائرة الادب جميع الانار الفلسفية والكلامية والفقهية والعلمية .. أطلق على الادب معناه الاصطلاحي الذي عرفته مظان الادب المدرسية في أوروبا . وجاوز بلاشير هذا المسدى

- التتمة على الصفحة ٥٠ -

## – تنمة حول توثيق الارتباط بترائنا –

حين قال ان حماسة الشرقيين جعلت من مقدمة ابن خلدون احدى الآثار الفذة في الادب العربي .. زاعما ان مثل هذه الانقلابات في المفاهيم استثنائية !!

و ( اديب ) بلاشير ، هنا ، هو اديب الدورة السابعة لمؤتمر الادباء العرب .. وهو الاديب الذي فضخت قواه الخائرة في مواجهة ترائنا العلمي والفني الذي يراد توثيق الارتباط به .. وهو اخيرا – اذا كان مهذبا – ( اديب ) فيليب سدنني ونازك الملايكة الذي رأيناه قبل لحظة هزبل الساق في مشنتله التجريبي .

انني امقت التضييق في مفهوم الادب ، ويسعدني ان اكشفه بالبعضاء والكراهية والمقت والحقد .. لانه ، في مذهبي ، جذر مطوب لا يمد الا بالجعاف والبلادة .

وانا ، لذلك ، اطلب بترحيل الادب من مفهومه الضيق الى مفهوم أشمل وأرحب .. الى مفهوم ( اخوان الصفاء ) الاكثر سعة .. الى مفهوم القرنين الثالث والرابع للهجرة الذي جعل الادب مثابة لجميع العلوم والفنون والحرف والصنائع .. لنكسب من وراء ذلك ما يسمى بالاسلوب المنهجي في الادراك ، ولنتزود بعد ذلك بما يسمى بالاسلوب الادراك الحضاري .

وحسبنا ، اذا تغطى مفهوم الادب على سعته ، ان يستوعب المشاركة البارعة في مضامير المعرفة تطبيقا وتصريفا ، ليجسدها بيسن موجبات الفكر وموجبات الحياة ، ويجعلها سجل نشاط للانسان الحضاري .. وهذا ما ادركه المستشرق الالماني كارل بروكلمان ، وأدخله بحذافيره في موسوعته ( تاريخ الادب العربي ) تجاوبا مع المصطلح Literature الذي اطلقته اوربا على مآثر أية لغة وعلى نتاج علمائها وادبائها منشورا ومخطوطا . ومن هنا ينبني التماس الاديب آخذا من كل شيء أحسنه ، ومشاركا في صروب الثقافة .. كما ينبني التماسه ك Literary Man ليؤدي دوره بذكاء فائق متوقد في مؤتمرات الادباء .. مسهما في توثيق ارتباط العرب بترائهم .

وانا على ان هذا المؤتمر يشعر عميقا وسيشعر كذلك أي مؤتمر لاحق بان التراث العربي ركيزة مكيئة من ركائز النهضة الراهنة ، وان الاستغناء عنه ضلال ، ولذلك بان واجبا ان تتزاحم المؤتمرات على تجنيد الصفوة من الادباء العلماء والادباء الفنانين والادباء اللتعاون على توثيق الارتباط به .. وبغير هذه الصفوة يفضل السعي ، وينحرف الركنض الى ما ليس وراءه طائل .

ان ترائنا العربي ، على الصعيد الادبي ، وصف الواقع وصفا صادقا ، وانتبش دفاثنه ، ودرس نقائصه ، وانه على الصعيد العلمي استقرى ومحص واستدل واستنبط .. فهو لذلك تراث معجزة . وانني اذ اقول هذلا لا اريد ان اداعب الغرور في صدور ابنائهم ، ولا اريد ان اصدهم عن مواكبة الحضارة الراهنة .. ولكني اريد تسخير الامجاد القديمة في تحقيق امجاد جديدة ، لان الوجود العربي كيانا وشخصية ومثلا لا يقوى على الاستمرار ولا على البقاء الا اذا وثقت الإرادة العربية ارتباطها بامجاد موروثه في جميع المستويات .

وكلمتي الاخيرة ، في هذا الصدد ، هي ان جميع المؤتمرات السابقة أصدرت توصيات ما تزال الى اليوم تحن الى التنفيذ .. ولا سيما فيما يتعلق بالتراث العربي . واني أخشى ان تكون توصيات هذا المؤتمر هدفا لنفس المصير البائس الذي النقم سواها .

انا لست مع الاستاذ فؤاد الشايب حين أعلن في بغداد سنة ١٩٦٥ قائلا : « دعونا من التوصيات : فمن شاء فلينفذ ، ومن شاء فليفلق الباب بوجه التوصيات وأصحابها .. لنترك التوصيات ، ولنقل ان خير ما نحصد من هذه المؤتمرات هو اللقاء بما يحمله من تعارف وتآلف » . انني اخالفه في الرأي ، واعتقد جازما ان بشاشة اللقاء وحدها لا تكفي في مساجلة الامبريالية والصهيونية ، وان حلوة اللقاء وحدها لا تكفي في توثيق الارتباط بترائنا العربي .. بل يجب ان تأخذ التوصيات سبيلها الى التحقيق والتنفيذ ليقال ، بعدئذ ، ان مؤتمر الادباء العرب قد تمخض عن نداء ايجابي للعمل المثمر .

عبد الحميد العلوجي

بفسداد

للمؤرخ البريطاني الشهير  
ارنولد توينبي

# الوحدة العربية تراثنا

عرف المؤرخ البريطاني الشهير ارنولد توينبي بتعاطفه مع العرب وتأييده لقضاياهم . وان مواقفه من إسرائيل وعدوانيتها وعنصريتها لا تزال في الازهان .

وفي هذا الكتاب يتنبأ توينبي بان الوحدة العربية لن تستغرق من الزمن حتى تتحقق ما استغرقته الوحدة الالمانية والوحدة الايطالية ، ولن تنحرف مثلهما ، بل ان سنة ١٩٧٤ هي الحد الاقصى ( كما يقول توينبي ) لاشراق نور هذه الوحدة العربية .

ويتحدث المؤرخ البريطاني عن العقبات التي تعترض الوحدة العربية والوحدة الافريقية ، ولكنه يؤكد ان هذه العقبات ، ومنها مصالح بعض الافراد والاسر المستفيدة من التجزئة ، ستزول تدريجيا ، وان الوحدة العربية قادمة قريبا وويل لمن تعميمه مصلحته الموقته من ابنائها عن الحق ، وويل اكثر لمن يقف في طريقها ، معاداة للخير ، من غير ابنائها ..

وفي هذا الكتاب الممتع تأملات تاريخية طافت بذهن توينبي اثناء رحلاته الثلاث الى بلدان افريقية ، شمالي وجنوبي الصحراء الكبرى ، وعرض دقيق لمشكلة السودان ونيجيريا ، واتلاف الاسلام والمسيحية في الحبشة وتاريخ نهر النيل ، ووصف شيق لمنطقة « سد الجبل » في اعالي النيل وورشة « اسوان » و « الجزيرة » في السودان ، مع زيارة الى غزة ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين واشادة بالخدمات التي قدمتها مصر لتلك المنطقة . كل ذلك في اسلوب شيق ونفس انساني رفيع وروح دعم وتأييد للنضال العربي